من كتاب همس الصحراء

قصة معبد

إذا قلت المحال رفعت صوتى
وإن قلت اليقين أطلت همسى

أبو العلاء المعرى

من أيام شهر يوليو وكأنما حرارة الطقس قد مدت فى ساعات هذا اليوم الصائف الحار فأصبح كأنه الأبد لا يشعر بانتهاء . فخرجت إلى تلك الصحراء القريبة التى أحس فيها وحدها الحرية ، والتى أعود منها دائماً ، وقد فهمت هذا الكلام الذى أقرؤه فى الكتب حول معانى الحرية ولا أحسه فى حياة تبدأ أيامها قيوداً ، وتنتهى قيوداً . وما كدت أسير فى الصحراء وأستنشق هواءها الجاف حتى بعث فى نفسى على دفئه نشاطاً لم يكن لأى شىء سواه أن يبعثه ، وإذا هذا النشاط يغرينى بالسير ، وإذا أنا مطمئنة إلى هذا الإبعاد فى الصحراء ، وكأنى واثقة أنى مهما قضيت فيها من الزمن فسأعود قبل أن ينتهى هذا اليوم الطويل . ولا يعرف سحر الصحراء إلا من سار فيها راغباً فى هذا السير الذى لا يوصل إلى غاية ، ولا يقصد به قطع الطريق . فلعل أجمل مافى الصحراء هو هذا الشعور المطمئن بالضياع . إنه شعور عجيب يجمع بين نقيضين ، وليس أبلغ فى التأثير فى النفس من اجتماع المتناقضين .

وعن بعد لاح لى بناء لم أكن رأيته من قبل . فقلت فى نفسى : لعلى اتجهت اتجاهاً جديداً . ولم أسترسل فى هذا التفكير ، فقد كان شىء غامض يسرع بخطاى نحو هذا البناء ، فأسرعت حتى كدت أعدو عدواً ، والبناء تظهر لى معالمه وتقترب ، فأعجب لهذه القبة الشامخة من بناها فى هذه الصحراء ، ترى ومن يعمرها ؟ أهى أثر قديم أم أن أحدا يسكنها سأحدثه ويحدثنى فأرى صاحب هذه العزيمة الجبّارة الذى بناها أو صاحب هذا الحظ السعيد الذى يعيش فيها ؟

ترى لمَ أفرد نفسه هنا وسط هذا الفضاء الواسع؟ أعابد هجر الحياة أم إنه سجين أفردوه قسراً وانتقاماً؟ لا ولكن القبة كبيرة فخمة، ولا يمكن أن تكون لفرد. إنه معبد قديم فيما يلوح. وعدوت وعدوت، وإذا بناء فخم ليس فى المدينة ما يماثله أو يدانيه. إنه يذكرنى بالمعابد التاريخية القديمة؛ فإن شيئاً فى حجارته وفخامته يوحى بالخلود والأبد. ولكن أمره عجيب فهو جديد ولا شك، ولكنه مهمل إهمالاً فاحشاً، فلم يبق من جدته فيما يظهر إلاّ معالم لولا وضوحها لكانت قلتها كافية لخفائها. وكنت كلما اقتربت أحسست وحشة ورهبة كانتا كفيلتين برجعى أو إثباتى حيث أنا لولا حب الاستطلاع. وإذا أنا قد كدت أصل إلى أسوار المعبد الخارجية فأرى شيخاً لفتنى إليه مظهره. فقد كان يجلس على الأرض، وفى يده عود قصير يداعب به الرمال فى هدوء وتأمل طويلين حالمين. وما كاد يحس خطواتى حتى رفع جفنيا فى تثاقل. ولم يكد نظره يرتفع إلى أكثر من ساقىّ حتى عاد إلى رماله يداعبها كأن نسمة من نسمات الصحراء مرّت على وجهه الأسمر الدقيق. فوقفت هنيهة أتأمل هذا الشيخ فى ملابسه البيضاء الناصعة، ولحيته الفضية التى توحى بالهيبة والوقار، ووجهه الوسيم الشاب الذى لاتكاد تلمح فيه أثراً إلا يسيراً للتجاعيد. وكان لهذه اللحية البيضاء على الوجه الأسمر الشاب لسحر جميل. وتأملت أنفه الدقيق وجبهته العريضة، وسألت نفسى: ماذا تكون أخلاق رجل هذه ملامحه؟ ثم ابتسمت فى نفسى من مثل هذه الأفكار تلوح لى فى هذا الموقف. وأفقت، وإذا انتظارى قد طال، فبدأت أحس شيئا من الارتباك، فلولا هذه الخطوط القصيرة التى كان يرسمها الشيخ فى بطء لم يكن من الصعب أن أظن أن هذا الذى أمامى تمثال دقيق الصنعة، قد ألقى فى الصحراء إلقاء. ترى ماذا يمكن أن أقول له. وإذا صوت من بعيد، فنظرت فإذا طائفة من الشبان تدخل هذا المعبد الفخم، وتختفى وراء الأسوار الحديدية التى أحاطت به. وقبل أن أفكر فى شىء كنت أعدو نحوهم لأسألهم عن أمر هذا المعبد، ولكنهم تواروا داخله قبل أن أقطع نصف المسافة التى تفصل هذا الشيخ عن الأسوار. فعدت مرة أخرى، ولما لم أجد هذا الشيخ قد تحرك نفد صبرى فقلت: « يا سيدى » وكأنما كان صوتى يخرج من جوف الأرض لا من حلقى. وما كدت أنطق بهذه الكلمة حتى رفع إلىّ بصره فى تثاقل، فإذا عينان حادتان تنفذان إلى نفسى، فأحس كأنها عارية

تكاد تتلاشى من خجلها فى هذا الفضاء ذرات متناثرة، وإذا صوت وقور بقى يقول : « وماذا أتى بك يا بنتى إلى هنا ؟ » . قلت : سيدى وما هنا هذه ؟ ولماذا تنظر إلى هكذا ؟ وأحس الرجل أنى خائفة أحاول إخفاء خوفى فى التلهف على معرفة ما لم أكن أعرف . قال : « أما هنا يا بنتى فهذا المعبد . وأما نظرتى فاغفريها لى ، إنى لم أرفع البصر عن الرمال منذ أعوام ، ولم أر إلا لونها الأصفر الأبيض حتى كدت لا أميز الألوان ، قلت : وكيف تعيش ؟ قال : « إنى أعرف بعض سدنة هذا المعبد فهم يقومون بخدمتى ، ولكنى لا أرفع بصرى إليهم لأنى لا أريد أن أراهم ، ولولا أنى لا أملك البعد عن هذا المعبد ما أطقت العيش هنا فى جوار هؤلاء . عودى يابنتى من حيث أتيت فإن فى صوتك إخلاصاً ، وفى ملامحك سذاجة يقتلهما هذا الجو الخانق » . قلت : « ولكن ماذا يضطرك إلى هذا ياسيدى ، وأمامك المدينة واسعة ولن تعدم من الأصدقاء فيها من ييسر لك عملاً تعيش منه قرير العين فلا تحتاج إلى هؤلاء الذين لا تطيق أن ترفع فى وجوههم بصرك ؟ » . فابتسم الشيخ ابتسامة عابرة من جهلى وقال : « إنى لا أطيق الإقامة فى المدن والبيوت . عودى يابنتى . ألم أقل لك إن فيك إخلاصاً وسذاجة ؟ » .

وعاد يداعب رماله فى حركة إن تكن أسرع من حركاته الأولى فإنها لا تزال بطيئة حالمة . وخفت ألا يجيبنى فقلت : سيدى سأعود فى الحال ، ولكن لى رجاء . قال ولم يرفع بصره : « حتى أنت ! » قلت : وماذا ؟ قال : لا تعملين إلا بثمن . قلت : رجائى أن تقص علىّ قصة هذا المعبد ، وأؤكد لك أنى لن أسألك شيئاً ، ولن أستفسرك عن شىء ، قصّ علىّ من أمره ما شئت ، واحذف من خبره ما ترى ، ولكن لا تدعنى أذهب وفى النفس ظمأ إلى معرفة أمر هذا المعبد فأعود إليه وأنت لا تريد أن أعود . قال : كلا يا بنتى ليتك تعودين ، وقد تبدلت الحال ؛ بل ليتك جئت إلى هنا منذ أعوام إذن لتلقيتك بالترحاب ، ولدخلت المعبد فلا تبرحين . ولكن . . . ثم رفع بصره إلى السماء ، وتنهد تنهيدة مكتومة حائرة ولم يقل أكثر من « يارب » ثم صمت . وشع نداؤه حائراً فى الصحراء وفى جوار المعبد إحساساً بخشية الله لا يمكن أن يوصف . إنه غيبة عن هذا العالم يتصل الروح فيها بشىء غامض قوىّ فتغمر النفس سعادة ويسرى فيها أمن . وأفقت على أصوات منكرة تنبعث من هذا المعبد ففزعت

وهممت بأن أعدو هاربة ، وقد خيل إلىّ أن وحوشاً ستنطلق فى أثرى ، لولا أن الشيخ قال لا تفزعى يا بنتى إنهم يرتلون آياتهم فى الصلاة ، اجلسى على هذه الصخرة فسأقص عليك قصتهم ، وإنها لحقيرة مؤلمة ، ولكنهم لا يقدرون إلا على هذا . إستريحى يا بنتى فلقد سرت طويلاً واهتزت أعصابك هزات عنيفة لم تتعوديها ، إنى قد علانى المشيب منها وأنا فى شرخ الشباب . قلت فى نفسى إن أمره لأخطر مما قد دار فى خلدى . هذا الصوت النقى الوقور ، وهذه اللحية البيضاء وهذا الوجه الشاب ، ثم هذه الجلسة التى لا يفيق منها ويكاد يقضى حياته فيها . إن أمره لأعجب من أمر المعبد . قلت : سيدى أتحدثنى حديثك أنت ولنترك أمر المعبد ومن فيه ، فقد تذاءل شأنه بعد ما سمعت من أصوات سدنته المنكرة ؟ قال : إن قصتنا لواحدة .

منذ أعوام طويلة جاء إلى هذه الصحراء نفر من شبان المدينة عرفوا الحياة يقيناً ، فزادهم يقينهم بها إيماناً ، وتطلعوا إلى خير ما يتطلع إليه إنسان ، فزادهم تطلعهم حماسة وإخلاصاً ، وأجمعوا أن خير ما ينفقون فيه أعمارهم هو التفرغ لعبادة من خلقهم ستعينين على التقرب إليه لا بالصلاة والتسبيح فحسب ، ولكن بالسعى أيضاً وراء المعرفة ، والبحث عن الحقيقة . فى السعى وراء المعرفة تسبيح ، وفى البحث عن الحقيقة صلاة . وقالوا : إننا لنفرغ لعبادتنا يجب أن نبعد عن المدينة وما فيها من لهو وزيغ ومطامع وأغراض ، ونقيم هنا فى هذه الصحراء لا نزور المدينة إلا مضطرين أو ساعين . نحتكّ بالناس لنعرف طبائعهم ، ونعامل الناس بالقدر اليسير الذى نحتاج إليه لمعاشنا ، أو بالقدر الذى يمليه علينا حبنا لمعرفة الإنسان هذا المجهول الذى أتعب العلماء والباحثين منذ خلقوا . وفيما عدا ذلك فمقامنا فى هذه الصحراء يعين بعضنا بعضا ، على مايدرس ويقوى صوت أحدنا أصوات إخوانه فيما ترتفع به من تسبيح بحمد الله . وقليلاً قليلاً قويت جماعتهم ، وبهرت فكرتهم بعض أهل المدينة ، فمنهم من انضم إليهم بروحه ونفسه ، ومنهم من وجد فى فكرتهم مجالاً لخلود الذكر ، فقال لهم نبنى لكم معبداً . وراق لهم هذا العرض وتقبلوا فضل هؤلاء المخلصين وتفاءلوا به . وقالوا : هكذا يمنّ الله علينا ليشجعنا على السير فيما بدأناه . وتنافس الناس فى المدينة لإقامة هذا المعبد لهؤلاء المؤمنين ، منهم من دفع من ماله لا يبتغى إلا المشاركة بما يملك فى تحقيق فكرتهم الجميلة ، ومنهم من رأى فى ذلك فرصة للمباهاة

والظهور . والإنسان قد فطر على التنافس والتفاخر . وشيئا فشيئا شيد هذا المعبد الفخم . لو رأيته يا بنتى يوم كمل بناؤه ! لقد كان آية من آيات الجمال ، كان عليه ضوء من السماء كأنما السحب قد انقشعت من فوقه وحده فأنارته وقد حجبت النور عن سائر ماحوله . كان لؤلؤة مضيئة لامعة فى رمال هذه الصحراء الباهتة . ودخل الشبان معبدهم ، وعكف كل منهم على ما كان يعكف عليه من قبل . ولست أذكر من أمرى شيئاً إلا أنى كنت أهيم فى هذه الصحراء ، وفى ذاكرتى خيالات مفرقة ، وصور قديمة عن معابد سكنتها حيناً وخرجت منها لا أدرى كيف ولا متى . فرأونى هائماً فى الصحراء فأدخلونى معهم وأكرمونى وأحبونى ، فأحببتهم جميعاً حتى إنى لم أطق أن أقيم فى غرفة بعينها من غرف المعبد ، ورجوتهم ألا يكون لى مكان معين فيه ، وأن يأذنوا لى بزيارة من أشاء منهم . فحياتى التى جبلت عليها تأبى على الاستقرار فى المعابد . وفرحوا لهذا وازدادوا بى تعلقاً ، وفى خدمتى تفانياً ، وعاشرتهم زمنا .

لو سمعت يابنتى أناشيدهم التى كانوا يسبحون بها ربهم لكل مطلع شمس ومغربها ! كانت أصواتهم أجمل نغم يمكن أن يسمعه الإنسان . أصوات آدمية بلغت من الصفاء أقصى مبلغ ، ومن الحلاوة مالا يمكن أن تصل إليه آلة مهما تكن . وكان ترتيلهم يتصاعد من هذه القبة اللازوردية فى طريقه إلى السماء ، فيحس سامعه ومنشده أنهما قد رفعا من فوق هذا الأرض وقد أصبحا شيئاً آخر غير أهلها ، شيئاً قريباً من عالم الملائكة بروائه وجلاله . حتى إذا خرج الصوت من القبة وتجاوبت أصداؤه فى قبة السماء ، ثم أخذت أنغامه تغيب فاسحة لغيرها ملئ الصوت حناناً ، وفتح بحلاوته آفاقاً وآفاقاً ، من الجمال والجلال والروعة ، وإذا الأطيار تدنو زرافات من أطراف الصحراء تدخل المعبد وتخرج منه محلقة مع الصوت فى آفاق السماء مرددة ألحان التسبيح خجلة أول الأمر من أصواتها ثم متشجعة بعد حين ، مفنية أصواتها الخاطفة القصيرة فى هذه الأنغام المليئة الطويلة . إن الأصوات الوحشية التى سمعتها الآن ، والتى أفزعتك هذا الفزع الذى أشفقت عليك منه ، لا يزال أصحابها يريدون من سامعها أن يكشف لهم عن مثل هذه الآفاق ، ونسوا أو تناسوا أنهم لا يتطلعون إليها ولا يحسون من الحنين إليها شيئاً ، بل إن صورها أصبحت لا تدور بخيالهم الذى ملئ رياء وريفاً وما آرب تفسد عليهم الحياة نفسها .

ومكثت معهم زمناً، فاصطفيت أحدهم وأحببته أكثر من إخوانه . لقد كان أدقهم تصوراً لفكرة هذا المعبد، وأشدهم تحمساً لها ، وإن حنينه إلى الوصول إلى الكمال فى أمر هذا المعبد كان أقوى من حنين إخوانه ، لسعة خياله واتقاد حسه ، وإمكان روحه أن يحلق فوق ما تشغل به النفس عادة من أمر هذه الحياة . وكان كثير التأمل شامل النظرة ، فاسع صدره لما لم تتسع له صدور الآخرين وقوى جلده وصبره على ما لم يقو عليه جلد الآخرين وصبرهم . وكنت أراه من حين إلى حين ينتحى مكاناً فى المعبد يطيل فيه التفكير فأعاونه ، وإذا هو يفضى إلىّ بدخيلة نفسه فى سذاجة الرجل العظيم ، ودقة القلب الكبير . وكان إخوانه يحسون هذا الجو الذى شع عليهم فى المعبد ، وهو مشبع بالمحبة والخلوص للتعبد ، فلم يغاروا من حبى له وإنما فرحوا به ، ولم يشغلوا أنفسهم بأمر إقصائه عنى ، أو بحسبان ما يمكن أن يطرأ على علاقتنا من تغيير بفعل الزمن أو الظروف أو الناس ، وإنما شاركونى فى حبى له ، فأحبهم هو وفسح لهم الطريق إلى قلبى . وكثيراً ما حدثنى عنهم يحاول أن يكشف لى ما ظن أنى لم أكن أعرف من محاسنهم . وفى يوم أرادوا أن يكون لهم رئيس ينظم أمر جماعتهم ، وأعمالهم وبحوثهم ، فلم يجدوا خيراً مما اصطفيت فبايعوه فرحين به . وارتفعت أصواتهم بالدعاء والشكر على ما وفقوا له فى أمرهم فكانت فى أحلى نغم وأرقه وأصفاه . ونظرت حولى فى أرجاء المعبد فتمتعت عيناى بجمال الفن وروائه : فهذه تماثيل صنعوها وقد وضعوا كلا منها على قاعدة تظهر أدق ما فى فنهم من آيات . ودخلت أشعة الشمس من قبة المعبد الزرقاء الصافية ، من تلك الفتحة الصغيرة فى القمة ، فتلاعبت بهذه الزرقة وألقت على التماثيل ألواناً وأشعة ، فزادت فتنتها وكمل جمالها . وهذا أحدهم عاكف فى ركنه يقرأ ويكتب ، وهذا آخر يفكر ويتأمل ويطيل التفكير ويتعمق التأمل ، وهذا ثالث ينحت ويصور ، وتلك جماعة تتناقش وتتحدث ، وأخرى تصلى وتتعبد

وكانوا قد أفردوا جزءاً من المعبد يستقبلون فيه شبان المدينة الجدد الذين يريدون أن يتعرفوا أمرهم ، فمنهم من كان يقرأ معهم ويتعبد فتحلو له الإقامة ويمكث معهم وقد عاهدهم وعاهد نفسه أن يظل منهم مدى الحياة . ومنهم من كان يرى فى حياة العزلة تلك مشقة لا قبل لمثله بها فيرجع إلى المدينة شاكراً حامداً وفى نفسه منهم أطيب ذكرى وأخلص حب . وسدنة المعبد يرحبون به

إذا قرر المكوث معهم ويودعونه آسفين محزونين إذا قرر الرجوع إلى المدينة . وهو إذا مكث فى المعبد أصبح من سدنته يقوم على خدمته كهؤلاء الذين سبقوه يعمل فى إخلاص ونشاط كل ما من شأنه أن يجمل المعبد وييسر الحياة الطيبة لمن فيه ، يتعاون معهم فى ذلك حسب سنه ومواهبه . حتى إذا نما هذا الوافد الجديد واكتمل بدأ يضيف هو أيضاً من جهده إلى جهودهم مايحقق فكرة عبادة الخالق صلاة وعلماً .

وكان منظر هؤلاء الوافدين الجدد طريفاً بديعاً ؛ فقد كانوا يتحسسون جدران المعبد ، كما يتحسس الريفى الجلف قطعة من الحرير ، كأنما فى اللمس وحده لذة فائقة . وكانوا يتطلعون إلى كبارهم ، كما يتطلع الطفل إلى أبيه فى إعجاب وحب ورغبة شديدة عمياء فى أن يقلده ، فهم يسيرون وراءهم يسألون فى إلحاح عن كل ما يخطر لهم ، والآباء يحدبون عليهم ويفتحون ما أغلق دونهم وينيرون ما أظلم عليهم . فإذا أتى من الوفود الجديدة من يسأل سؤالا كانوا هم سألوه من قبل ضحكوا منه ضحكة لذيذة ، كأنما يرون فيه أنفسهم من جديد .

وأحب صاحبى هؤلاء الجدد ورأى فيهم حجراً أساسيا فى بناء المعبد . إن حياة الانسان لقصيرة ، وفكرة المعبد أبدية ازلية . ترى من يقوم بها إذا أقعدت السن من بدءوا غير هؤلاء الشبان . ومن خير ما تخدم به فكرة المعبد أن تكون الخطوة الجديدة فيه خيراً من السابقة ، وأن يكون الذين سيلون الأمر فيه خيراً ممن يلونه الآن . وتحمس صاحبى تحمسه لكل فكرة صائبة تلوح له ، وقال لهؤلاء الجدد : إننا نريد أن نعدكم لتكونوا خيراً منا . وملأ الغرور الطموح المحبب نفوسهم المتطلعة الشابة فقالوا : وإنا لنرجو أن نكون كذلك . قال : إن معبدنا هذا واحد من آلاف المعابد المقامة فى صحارى العالم الشاسع الواسع . ومن الخير لهذا المعبد أن يعرف القائمون بأمره ، لا مايدور فى معبدهم فحسب كما يعرفون الآن ، ولكن مايدور أيضاً فى تلك المعابد الأخرى حتى يقفوا على أحسن الوسائل التى تتحقق بها فكرة المعبد العظيمة . إن من المعابد الأخرى القديم ، وإن منها ما قد مرن فى التجارب قروناً ، فليذهب كل منكم إلى معبد من تلك المعابد وسيرحب به أهله دون شك ، فليمكث فيه زمناً ، ثم ليعد إلينا وقد عرف مالم يكن له أن يعرف لو أقام هنا طوال عمره مهما أخلص . لقد زرت هذه المعابد مراراً وأقمت حيناً فى غيرها ، ولكن الزمن يسير ، والكمال لا يدرك فى جيل ،

فلتذهبوا إليها ولتقيموا فيها ، ولتحسنوا الدرس والأناة فى الدرس ، لعل فيكم الخير لمستقبل هذا المعبد المقدس . وتحمس الشباب الطموح لفكرة الرحلة فى ذاتها ، وأكبر أستاذه أكثر مما كان يكبره بعد أن ظن أنه قد بلغ النهاية فى إجلاله وإكباره . وودع أهل المعبد إخوانهم الصغار الراحلين ، وفى نفوسهم حسرة على فراقهم ، وفى تفكيرهم رضا عما سيكون منهم حين يعودون .

ومنذ ذلك اليوم الذى تولى فيه صاحبى أمر المعبد وأخـذ يعنى بحاضره ومستقبله أحسست فى نفسى أمناً ورضا ، واطمأننت إلى أن الحياة فى هذا المعبد ستسير كل يوم نحو غايتها ، وستبعد عنها الغاية كلما بدت دانية فينعم سدنته بأمتع لذات الحياة ، لذّات السعى إلى غاية لا تدرك ، فلا يمكن السأم أن يتطرق إلى حياتهم ولا يمكن كسل النجاح أن يميت نفوسهم إذا ما وصلت . إنهم سيسعون أبداً وستفنى حياتهم فى هذا السعى وهم راضون متحمسون ، بل وهم محتقرون كل من يريد أن يريحهم أو يغريهم أن يستبدلوا بغايتهم غاية أدنى وصولا وأيسر سعياً .

وبينما كنت أحس الطمأنينة كلما فـكرت فيهم كنت أحس القلق إذا ما فكرت فى نفسى : ما مقامى هنا بل ما مجيئى ومتى ذهابى . إنى يابنتى لا أعرف شيئاً عن نفسى ولا أدرى من حياتى إلا خيالات صور مشتتة غامضة . ولو تركت إلى نفسى حيناً لاتّسع الوقت لأن أعرف من شأنها شيئاً ، ولـكنى موكل دائماً بأمر ، مشغول بفكر . وأحسست يوماً وأنا أجول حول المعبد برغبة فى أن أمعن فى هذه الصحراء . لقد كانت الصحراء أمامى كل يوم ، فما أحسست لجمالها إغراء ولا لسحرها فتنة . ولـكنى فى ذلك اليوم أحسست إغراءها وفتنتها ، واستطعت بعد مشقة أن أقاوم إحساسى فلا أتيه فى مجاهيلها . فلما عدت إلى صحبى إذا بهم قلقون مضطربون يتحدثون فى أمر جاءهم من المدينة ، فهذا حاكمها أرسل إلى رئيسهم يريده أن يشخص إليه . وعاد منهم من المدينة من عاد ، فقد كانوا يخرجون إليها إما للدرس وإما للمعاش ، فقالوا إن أهل المدينة فى أشد حالات الاضطراب ؛ فقد قام عليها حاكم متكبر جبار يريد أن يخضع فيها كل شىء لأمره . فلما قاوموه تعسف وقتل فأذعنوا مرغمين ، وفى صدورهم براكين من الغيظ ، وفى نفوسهم فيض من ألم الذلة وذل المسكنة . وظل الحاكم عاماً أو نحو ذلك لا يستطيع أحد إلاّ موافقته على ما يفعل أو يقول . وترامت إليه أخبار المعبد وما ينعم به أهله من حرية وكرامة ، فعز عليه أن يكون حر أو كريم

لا يخضعه لسلطانه ، فأرسل إلى رئيس المعبد ليسير إليه . ولا يعرف السدنة الآن ماذا سيكون من أمرهم مع هذا الطاغية ، واضطربت نفوسهم أشد اضطراب . ولأول مرة أحسست أنى غريب عنهم ، وأنى لا أحس ما يحسون ، ولا أفكر فيما يفكرون ، ترى ماذا جعلهم يضطربون ؟ ولأول مرة أيضاً أحسست الندم لأنى قاومت إغراء الصحراء وفتنتها . وتطلعت إلى صاحبى فإذا هو الوحيد الذى لم يضطرب ، وإذا هو يتحدث إليهم بما أصبحت أفهمه وإن غابت عنى بعض معانيه . إنه أخذ يعيد الطمأنينة إلى قلوبهم ، وإذا هم يفيقون من حديثه أقوياء متحمسين . وتجاوبت الحماسة فى نفوسهم فقويت وازدادت قليلا قليلا حتى ملأت قلوبهم . إنهم لن يفرطوا فى رئيسهم ، ولن يذهب إلى الحاكم لأنه دعاه . إن حاكم المدينة لو طرق بابهم ما أجابوه . وما لهم وما يتناحرون من أجله هناك ! إنهم زاهدون فى السلطان ، راغبون عن المال ، حسبهم من عيشهم هذه الحياة التى يحيونها مفعمة بلذة القرب من الله سبحانه وتعالى يتعبدون ويدرسون فيحسون حجب الكون تتكشف لهم حجاباً حجاباً ، وفى كل كشف لذة تطغى وسعادة تغمر .

ولكن الحاكم لم يصبر على هذا الثبوت له ، وإذا جنده يقتحمون المعبد ويخرجون الرئيس بالقوة . ولا تسألى يا بنتى عن الهلع الذى اعترى تلك الجماعة المؤتلفة المتحابة . وكانت غضبتهم غضبة قوية دوّت بها الصحراء كلها . إنهم لن يرتضوا غير رئيسهم ، ولا بد أن يرد إليهم . وسعى إليه من سعى فى عزلته وجفاه من جفاه . وهدّأ الزمن من ثورة النفوس ، وإذا الشدة كعادتها تكشف عن حقيقة النفس ، وسرعان ما كشفت عن تلك النفوس التى سما بها الجو حولها ، فغارت فيه وهى ليست منه . فلما نضبت الكأس ظهرت رواسبها التى كانت تعوم فيها . إن هؤلاء القلة الذين كانوا النواة الأولى لم يحسنوا اختيار إخوانهم ، فضموا إليهم بعض من فقه فكرة المعبد وبعض من لم يفقهها أصلا . بل لقد ضموا بعض من بهره بناء المعبد ، ولكنه عاش غريباً فيه يساير أهله وهو لا يحس أنه منهم . كل ما فى الأمر أنه وجد فى المعبد أمناً ودعة لم يتوافرا له خارجه ، وظن أن سيكون لهذا المعبد شأن دنيوى سريع ، فماذا عليه لو شارك فى هذا الشأن منذ الآن فيكسب بمر الزمن . لقد كانوا أعرف بطبيعة الحياة والانسان من هؤلاء المثاليين المؤمنين الأولين .

وكان أمر الوافدين الجدد مضطرباً بين هؤلاء وهؤلاء ، منهم من آمن مع الأولين فاقتنع بوجهة نظرهم ، ومنهم من عاد بعد قليل فآمن بوجهة نظر هؤلاء العمليين ، ونسوا ثورتهم العظيمة ؛ فالزمن كفيل بأن ينسى أعظم الأشياء وأجلها شأناً فى الحياة . أما سدنة المعبد فلقد غفلوا أو تغافلوا عما بينهم من اختلاف ، وكانت أصوات العمليين تضيع فى أصوات المخلصين وعمقها وهم يرتلون من قلوبهم ، فظلت أنغامهم تخرج حارة قوية مع أن عدداً ليس بالقليل منهم كانت تراتيله لا تجاوز الشفاه خجلا وخوفاً .

ولكن المحنة أتاحت لهؤلاء العمليين أن يتكلموا وأن تعلو أصواتهم الخائفة ، ومر الزمن فاذا أصواتهم تعلو فى الترتيل ، وإذا أصواتهم تعكر صفو هذا اللحن الصافى الرقراق . وقال قائلهم إنه كان يجب على رئيسنا أن يجيب الحاكم فلا يعزله ولا يعذبه . وقال آخر إن للحاكم سلطاناً على كل شىء وسلطته مهما بالغ فيها يجب ألا تعارض ، وإلا ضاعت هيبة السلطان فى كل زمان ومكان . ولكن ظل من المؤمنين الأولين من يقول إنه ليس للحاكم أن يتدخل فى أمرنا ، إننا لا نتعرض له ولا لسلطانه ، فنحن قوم جعلنا بيننا وبين المال والسلطان آماداً واسعة . والمال الذى يأتينا من المدينة إن هو إلا قرابين أهلها إلينا لا يدفعه الحاكم من ماله ولا يتكلف فى سبيل إيصاله إلينا شيئا . ولكن صوت هؤلاء المؤمنين وإن يكن كله إخلاصاً فقد كان فيه غير قليل من فتور خيبة الأمل والاشمئزاز ممن حولهم فلم ، يكونوا ينتظرون إلا أن ترى الجماعة فى مثل هذا الموقف رأيا واحداً تراه أول الأمر ولا تحيد عنه إلى النهاية .

وغضب سدنة المعبد المخلصين وتلاميذهم ما شاءوا ، ولكنهم عرفوا آخر الأمر ما حاولوا نسيانه ، وهو أن الحاكم الظالم لا تقاومه إلا جماعة متماسكة كل التماسك . أما هم فقد تفككوا وظهرت لهم العناصر الغريبة عنهم التى تعيش بينهم ، وعادوا سيرتهم الأولى ، وقد فترت حماستهم ونظر بعضهم إلى بعض بعين الريبة والشك ، كل منهم يظن فى صاحبه ما لا يظهر . لقد كانت التجربة قاسية . ثم أرسل الحاكم أوامره فحاولوا أول الأمر مقاومته ، ثم أذعنوا وولوا عليهم من ارتضاه الحاكم حتى لا تنفذ فى المعبد إلا أوامره . لقد نقب هذا الرئيس الجديد أول ثغرة فى حصن المعبد المقدس ؛ فقد جعل للحاكم فيه أمراً لم ينته بل ازداد على مرّ الأيام .

ومنذ ذاك يا بنتى اتصل أمر المعبد بالحكم القائم اتصالا أفسد عليه كل أموره . فالذين كانوا من أبنائه يقضون النهار فى البحث والتسبيح لله ، والليل فى التهجد والتفكير والتأمل ، أصبحوا يقضون اليوم فى المدينة باحثين عن الأسباب التى توصلهم إلى رضا السلطان وعطفه ، وليلهم فى التفكير فى وسائل هذا التقرب وكيفيته . فإذا صحا خيالهم وألم بهم إلمامة ما ، لم يفكروا فى جنات عدن ، وإنما تخيلوا ما يمكن أن يصلوا إليه من سلطان ، وما يمكن أن ينعموا به من مال . وأصبحت صلاة المؤمنين المخلصين منهم تجمد على جدران المعبد الخرساء الباردة قبل أن تنزلق فى طريقها إلى السماء . وبذلك أصبحت الحياة فى المعبد جحيما لا يطاق . وأمر الرئيس الجديد ، ونهى وأطاعه بعضهم ، وتحاشاه الآخرون ، فقرّب وأبعد ، وأفسد ما شاء له الإفساد .

ريشاء الله ، جلت حكمته أن تعارض ، أن يعود فى تلك الآونة شبان المعبد السافرون فى صحارى العالم ، وفى قلوبهم حماسة الشباب المؤمن ، وفى عقولهم علم وأمل واسع عريض ، فإذا المعبد حوله أسوار لم تكن أيام كانوا فيه . فنفرت نفوسهم من تلك الفضبان الحديدية ، وماترمز إليه من معنى السيطرة والسلطان ، بل من معنى القيد والذل . ولكنهم جاوزوا الأسوار ، وإذا وجوه إخوانهم وكبارهم توحى بنفرة أشد وخوف أقوى . إنهم لم يرحب بهم أحد ولم يهش لمقدمهم إنسان ، وتقدموا للعمل فلم يشجعهم أحد ، بل أحسوا رغبة خفية فى التخلص منهم . ولما عرفوا حقيقة الأمر وجموا حيناً ، وأفاقوا من وجومهم فريقين : فريق زار معابد الصحراء زيارة عابرة لم تُذكِ فى نفسه ناراً بل أخمدت ما أضاء له أساتذته الأولون فى معبد الصحراء هذا ، لذلك آثر أن ينحو نحو من رآه فى المعبد يقوم بالأمر ، وقد أسبغ عليه سلوكه هذا مسحة فلسفية استمد منها بعض ما يدافع به عن نفسه أمام إخوانه . واستمر يصعد فى سلم المادة وهو آمن مطمئن يفسر انتقاد إخوانه حسداً ، ويرى تأنيب ضميره رجعية ، وإذا هو وحش كتلك الوحوش التى سمعت أصواتها ، وارتفع صوته يقوى أصواتها فازدادت غلظة ونكراً . وأما الفريق الآخر فقد آثر الانزواء فى المعبد بعيداً يخفت من صلاته ويُدارى من تسبيحه وقد انصرف عن كل أمر فى المعبد ، لا يكاد يدرى مما يدور فيه شيئاً ، وهو غارق فى الدعاء لله أن تنجلى المحنة وأن تعود للمعبد حياته الأولى . ولما طالت بهذا الفريق الأعوام

ثبت منه من ثبت ، وتغير منه من تغير ، بل فر منــه من المعبد من فرّ .

وهكذا فقد المعبد الروح الذى يحدب عليه ، وأصبحت عقول سـدنته وقلوبهم خارجة عنه وإن ظلت أجسامهم فيه . ولم أطق العيش معهم ، فخرجت إلى هذه الصحراء أجوبها من جديد ، وعدت إليه بعد أعوام لما ترامى إلى سمعى من أن رئيسهم القديم عاد إليهم . ولـكم تألمت عند ما وقع بصرى على المعبد بعد أن تركته طوال هذه الأعوام ! إن القبة الزرقاء أصبحت رمادية مما تراكم عليها من تراب . إن الجدران اللامعة الملساء قد تآكلت ، وتحفرت ، كأنما نخر فيها السوس . إن الأرض البيضاء الناصعة قد اسودت من أقدام الوافدين الذين هان عليهم أمر معبد ، هاف على سدنته من قبل . إن الهواء الطلق الجميل الذى كان يمر بالمعبـد فى جلال الحرية وسموها أصبح يدخله من خلل قضبان كأنما هى أنابيب لا تطلقه إلا بمقدار . ورحت إلى صديقى أرى ما فعلت به المحنة فإذا هى قد تركت فيه آثارها . لقد بلا فيها ما لا يمكن لإنسان أن يبلوه ليظل إيمانه كما هو وإخلاصه كما كان . نعم إن إخلاصه لم يطفأ . إنه ما كاد يطأ بأقدامه أرض المعبد ، ويسمع أصوات بعض المخلصين من صحبه حتى سى أو تناسى ما كان من أمر السدنة طوال هذه الأعوام . وبدأت حرارته تنير المكان ، وبدأ السدنة يلتفون من حوله ، وبدأ ترتيلهم خافتاً ولـكنه كان صافياً ، وإذا الأطيار تعود فرادى لتحلق حول القبة الزرقاء تتلقى الأنغام فترددها خجلة من ترداده الرفيع ، ثم متحمسة شيئاً فشيئاً حتى يفنى صوتها فى عمق أصوات السدنة المخلصين . ودخلت المعبد من القبة الزرقاء تريد أن تقيم فيه من جديد ، ولـكن صدها ما رأت . إن العناكب متراكمة على جدرانه ، وإن وجوه سدنته ساهمة ، وعيونهم زائغة ، أكثرها عالق بالأرض يحسب ويزن ، ولا يتطلع إلى السماء ليحلم مطمئنا .

وسار الزمن بالمعبد فى حالته الجديدة خطوات ، تحسبونها أشهراً أو سنوات ، وإذا الرئيس نفسه قد يئس من أمر المعبد . لقد كان الفساد فيه أشمل من أن يوحى بأمل فى إصلاح . إن جهاد الإصلاح أعسر من جهاد الإنشاء ، ومقاومة أهل المعبد أنفسهم أعسر وأشق من مقاومة السلطان . إن هؤلاء الغرباء الذين ظلوا فى المعبد وأصبح الأمر لهم إلى حد بعيد كان من الصعب إغفالهم ، ومن الأصعب التعاون معهم . ولم يكن الرئيس قوىّ الثقة بأبنائه الشباب ، فقد أظلم

نظرته إليهم ما بلاه فى كبارهم ، فظلمهم وظلم نفسه بل ظلم المعبد فيهم . ولم تكن هذه القلة المخلصة الصافية من شباب أبنائه بكافية عدداً لتعين على إصلاح جبار كالذى تتطلبه الحال . وهى قد ألفت العزلة والحذر من المشاركة فى أمر ، فلما جاء الرئيس كانت هى أيضاً ضعفة الأمل فى الإصلاح أو عودة الحال . وحاول الرئيس ما حاول ثم مل وسئم ، وظلت هذه القلة عاكفة على نفسها لم تسأم ولم تيأس كل اليأس . واتصل اليائس بالمتفائلين منهم ، فغلب يأسهم الحار تفاؤلهم الخجل الفاتر . ولم تعد للرئيس حياة فى مثل هـذا الجو ففر يائساً إلى المدينة ، يشق لحيـاته طريقاً آخر ، ويرسم لنفسه غايات جديدة ، لست أدرى من أمرها شيئاً : أتتصل آخر الأمر بالمعبد أم هى قد قطعت كل ما بينهما من أسباب .

إن أعمار الرجال يا بنتى لقصيرة ، وإن قصرها وجده لخليق أن يشع فى النفس معانى وتقديرات تقلب وجهة النظر إلى الحياة كلها . فإذا ما تقدمت هـذه الأعمار وأحس أصحابها لأول مرة إحساساً قويًّا أنها ستنتهى بعد حين ، وإن هـذا الحين ليس طويلا كما كانوا يحسونه فى الشباب ، أشع هذا الإحساس فى نفوسهم من الأحاسيس والمشاعر ما هو كفيل بأن يغير مجرى الحياة . ولـكن ما لنا وللرئيس ! لقد هجر المعبد وهجره معه الأمل فى عودة الحال سيرتها الأولى .

وهكذا يا بنتى ظلت أمور المعبد تسير من فساد إلى فساد ، ومن يأس إلى يأس ، حتى نصبوا عليهم أخيراً شرهم خلقا وأبلدهم حساً ، وأضيقهم أفقاً . رجلا لا يدرى من أمور الدنيا إلا ما يفيده وينفعه نفعاً ماديًّا . إنه كبعض حيوان الصحراء الذى لا يفيق من نومه إلا على خطر يهدد حياته ، وإذا هذه الغفلة الطويلة والنوم العميق يستحيلان إلى يقظة وذكاء لا قبل لهذا الحيوان بهما . فإذا ما زال الخطر عاد يغط فى نومه وينعم بغبائه من جديد . ولا تسألى عما أفسد فى نفوس أهل المعبد وأموره ؛ فكما أن الروح السامى يرفع من حوله إلى عليين كذلك ينزل الروح الشرير بمن حوله من ضعاف النفوس إلى أسفل سافلين ووصلت الحال أخيراً إلى ما قد سمعتِ من صوت ، وما رأيت من مناظر .

قلت : سيدى ولماذا ولوا عليهم شرهم ؟ قال : إنه أمر السلطان . لقد كان أهل المدينة يرسلون خيراتهم إلى أهل هذا المعبد وهم يرونها قرباناً لأهله وتقرباً إلى الله وسدنته ، وكثيراً ما أسفوا على أنها ليست أكثر مما يرسلون بالفعل . ولـكنهم اليوم ، بفضل سوء الحال عندهم وفى المعبد نفسه ، أصبحوا يحسون أنهم يدفعون

إلى أهله مالا يستحقون ويعنون عليهم بما ليس لهم فيه حق . وسدنة المعبد لا يهمهم من هذا شئ . إنهم ساعون دائماً لملء بطونهم حتى يغطوا فى نومهم ، وتضخيم أصواتهم إذا ما أفاقوا . وهم يرون فى ضخامتها جلالا ، وفى نكرها إشعاراً بعظمتهم ، وهذه أصواتهم تعلو من جديد ، إنصتى إليها .

قلت : سيدى ولكن أليس عندك أنت أمل فى عودة الحال ؟ قال : إنى لا أعرف إلا ماضياً وحاضراً ، أما المستقبل فلا يكشف لى عنه إلا سدنة مخلصون ، وقد مات هؤلاء من دنياى . قلت : ولكن تلك القلة من شبابه ألا تصحو يوما ؟ قال : من يدرى ! . . نعم من يدرى !

ثم عاد يداعب رماله بعوده من جديد . وخفتُ أن يصمت فقلت : ولكن أليس هناك ما يمكن أن يعمل ؟ ولكنه لم يجبْ . ولو قد أجاب لضاع صوته فى تلك الصيحة المنكرة التى سدت الآفاق من سدنة المعبد ، تثير فى النفس خوفاً واشمئزازاً بعيدين كل البعد عن الإجلال أو الإعظام . قلت : سيدى ! ولكن الشيخ ظل كما هو لا يتحرك . وفجأة هبت الريح قوية أول الأمر ثم عاتية قاسية حتى رفعت كثيراً من رمال الصحراء إلى آفاق السماء ، فأقفلت عينىّ حتى لا تعميهما ذرات التراب ، فاذا الخوف يبلغ منى مبلغاً عظيماً ؛ فهذه أصوات منكرة وسط الظلام ، وتلك رياح عاتية تكاد تقتلعنى من الأرض . وصحت فى خوفى : سيدى أين أنت ؟ ولكنى لم أسمع لنفسى صوتاً . وازدادت العاصفة قوة ، فاذا بى أندفع إلى حيث لا أدرى ، أعدو كأنما الرياح هى التى تحملنى .

وفجأة وجدت نفسى على أبواب المدينة وقد كاد النهار الطويل أن ينتهى . وعدت إلى بيتى متعبة ، ومنظر المعبد وشيخه وحديثهما ، بل الصوت المنكر ، ملء نفسى وخيالى . وما كاد الصباح يلوح هادئ النسيم ، كأنما الطبيعة تستريح من جهاد عاصفة أمس ، حتى أسرعت إلى الصحراء أبحث عن المعبد وشيخه فلم أجد لهما أثراً . وطال بحثى وتجوالى حتى كلّت قدماى ، وعاودت البحث مساء وصباحاً أياماً وأياماً بلغت أشهراً وأعواماً حتى يئست من أمرهما . ترى ابتلعتهما عاصفة الصحراء أم حملتهما إلى صحراء أخرى من صحارى الأرض . ولما بلغت حيرتى أشدها شككت فى أمر نفسى ، فسألتها : أرأتهما فعلا واستمعتْ إلى الشيخ حقًّا ؟ قالت : أما ذاك فليس فى أمره شك . قلت : ولكن أين ذهبا . قالت : أما المعبد فلا يمكن أن يكون قد رفع على متن الريح . وأما الشيخ فقد

كان أكثر تعلقاً بالأرض ولصوقا بها من أحجار المعبد على ضخامتها . قلت : إذن أين هما ؟ قالت : فى الصحراء . قلت : وما لى لا أراهما ؟ قالت : إنها صحراء صامتة خرساء قاحلة جرداء ، ولـكن عليها أزخر حياة وملؤها أشهى حديث ، ولا يحس حياتها ولا يسمع حديثها إلا من أحبها ، ونسى نفسه فيها . قلت : وهل أحب الصحراء مثلى أحد ؟ قالت : أنسيت العاصفة وما أثارته فيك من خوف واضطراب ! مما فررت ؟ وعلام حرصت ؟ أعلى الصحراء ؟ قلت : لقد زالت العاصفة . قالت ولـكن آثارها لا تزال . وهل يزول فى الوجود شىء .

مهير القلماوى